بيروت في ٣/ ١١/ ٧٣

محاضرة الاستاذ كمال صليبي ـ دار الفن والادب في ٦/ ١١/ ٧٣

الموضوع المطروح للبحث في هذه المناظرة ، وهو " الانقسام الذي يشطر اللبنانيين الى شطرين كلما طرحت قضية مصيرية " فيه شيء من الافتراض والحكم المسبق .

يفترض الموضوع بالشكل الذي طرح فيه ، ان انقسام اللبنانيين الى شطرين كلما طرحت قضية مصيرية هو ميزة من ميزات الشعب اللبناني دون غيره من الشعوب في العالم العربي ، او في العالم الاوسع .

ويفترض الموضوع كذلك ، بالشكل الذي طرح فيه ، ان الانقسام في الرأي والموقف في وجه القضايا المصيرية هو مشكلة او نقطة ضعف او علامة مرض دليل على نقص .

وهناك ايضا افتراض في الشكل الذي طرح فيه الموضوع ، وهو الانقسام في الرأي والموقف في لبنان في وجه القضايا المصيرية هو انقسام حتمي يعكس الواقع الطائفي في البلاد ولا يخرج عنه .

هذه الافتراضات الثلاثة قد لا تكون صحيحة تمتما . ناخذ الافتراض الاول ، مثلا ، فنجد ان كل مجتمع في العالم ينقسم في الرأي والموقف ، الى شطرين او اكثر كلما طرحت قضية مصيرية . وما يميز لبنان في العالم العربي ، من هذه الناحية ، هو ان في بلادنا وسائل اعلامية تتمتع بحرية كافية لاظهار هذا الانقسام ، وان الحريات التي يضمنها النظام اللبناني ، ضمن نطاق الذوق السليم ، تمكن الفرد اللبناني من ابداء رايه في القضايا المصيرية بقدر من الصراحة .

واذا كان هناك خطأ في الافتراض الاول ، فقي الافتراض الثاني خطأ كبير. الانقسام في الرأى ليس بالضرورة مشكلة او معضلة ، بل قد يكون في بعض الاحيان طريق الخلاص . وقد جاء في امثال سليمان الحكيم ان الخلاص بكثرة المستشارين . وكذلك ، فالانقسام في الرأى و الموقف قد يكون دليلا على السلامة و العافية الفكرية اكثر منه على الضعف و النقص و المرض . بل ان مثل هذا الانقسام ، وعلى الاخص في وجه القضايا المصيرية ، هو بعينه الدليل على العافية الفكرية في المجتمع . يقول المثل اللبناني ان " الرزق من باب واحد حزين " . وهناك ظروف قد يقود فيها التمسك بالرأى الواحد و الموقف الواحد و التصلب في المحافظة على وحدة الصف على حساب العافية الفكرية ، مع علاتها . هناك ظروف قد يقود بها ذلك الى الكارثة ، ان لم يكن الى الهلاك . في رأيي انه من حسن حظ لبنان ، كوطن قائم بذاته او كجزء رائد من العالم العربي ، ان الرأى و الموقف ينقسم فيه بصورة مستمرة فيشطره الى شطرين في وجه القضايا المصيرية .

وهناك الافتراض الثالث ، وهو الانقسام في الرأي و الموقف في لبنان وهو انقسام مرتبط ارتباطا عضويا في التركيب الطائفي للمجتمع اللبناني . وهذا الافتراض فيه شيء من الصواب و شيء من الخطأ . هناك من المسلمين في لبنان من يعتبر الطوائف الاسلامية مدعوة لان تكون قيمة بشكل خاص، و ربما دون غيرها ، على عروبة لبنان . و هناك من المسيحيين من يحسب ان الطوائف المسيحية في لبنان مدعوة لان تكون قيمة بشكل خاص، و ربما دون غيرها ، على استقلال لبنان و سيادته و استمرار كيانه القائم في العالم العربي .

وبعض متطرفي الفريقين ـ هناك متطرفون من المسلمين الذين يعتبرون انفسهم بشكل خاص قيميين على عروبة لبنان . هناك متطرفون من هؤلاء ممن يعتبر ان في كل خطوة تهدف الى تقوية الكيان اللبناني و استقلاله و سيادته خطرا على عروبة البلاد . و هناك متطرفون من المسيحيين ممن يعتبر ان في كل خطوة لبنانية في اتجاه الصف العربي ، بل و في كل نجاح عربي ، شيئا من الخطر على استمرار الكيان اللبناني في سيادته و استقلاله . غير ان المسلمين في لبنان ليسوا وحدهم المتمسكين في المحافظة على عروبة لبنان (كما يرى المتطرفون منهم ) ، كما ان المسيحيين ليسوا وحدهم اصحاب الاهتمام في المحافظة على الكيان اللبناني (كذلك كما يرى المتطرفون منهم ) ، و ذلك على الرغم من ان اصوات المتطرفين من كلا الفريقين تعلو في كثير من الاحيان على اصوات المعتدلين . و هناك طبعا دجل و نفاق من كلا الفريقين ، و لعل في الدجل و النفاق ، في كثير من الاحيان ، ما ينفع .

القضايا المصيرية التي واجهت العالم العربي منذ القرن التاسع عشر ، عندما بدات المدنية الصناعية الاوروبية تغزو المنطقة ماديا و فكريا و سياسيا و عسكريا . هذه القضايا المصيرية لم ينقسم اللبنانيون حولها وحدهم ، بل العالم العربي باسره ، بل و العالم الاسلامي الاوسع باسره ، انقسم حولها الى شطرين : شطر راى الخلاص في قبول المدنية الغازية و مسايرتها ماديا و فكريا و سياسيا ، و شطر آخر راى الخلاص في التصلب و الوقوف الصامد ، ماديا و فكريا و سياسيا بل و عسكريا ، في وجه المدنية الغازية . و قد شاءت الظروف في لبنان ، بسبب القرابة الدينية بين مسيحيي البلاد و بين اوروبا المسيحية ، ان يسبق المسيحيون اللبنانيون غيرهم من ابناء البلاد العربية و الاسلامية الى اتخاذ الموقف الاول ، و هو الموقف الذي راى الخلاص عن طريق قبول المدنية الغازية و مسايرتها . و هذا ما فعله المسيحيون منذ البدء ، و للسبب ذاته ، في المناطق العربية و الاسلامية الاخرى . غير ان الموقف الذي اتخذه مسيحيو لبنان من الامر استاثر بقدر اوفر من الانتباه بسبب الوجود المسيحي القوي نسبيا في لبنان دون غيره من بلاد المشرق . و اشد ان المسيحيين اللبنانيين لم يبقوا وحدهم طويلا في موقفهم هذا المساير للمدنية الاوروبية الغازية .

و انقسمت المدنية الاوروبية الغازية ، مع الزمن ، الى شطرين ، شطر غربي يتزعمه الاتحاد السوفياتي و شطر غربي تتزعمه الولايات المتحدة الاميركية . فتغير الوضع في العالم العربي و الاسلامي الى حد ما ، اذ وقف القائلون بضرورة مسايرة المدنية الغازية موقفا جديدا يقول بان الخلاص يكون عن طريق مسايرة الغرب ، ووقف القائلون بضرورة الوقوف الصامد في وجه المدنية الغازية موقفا جديدا يقول بان الصمود و الوقوف في وجه المدنية الغازية يمكنه ان يستمد القوة السياسية و العسكرية و المادية و الفكرية التي تنقصه عن طريق الوقوف مع الشرق . هذا الانقسام في الموقف موجود في جميع انحاء العالم العربي و الاسلامي ، و هو موجود ايضا في لبنان حيث يتخذ ، الى حد ما على الاقل ، طابعا طائفيا . اذ اصبح الفريق المسيحي في لبنان يعتبر حليف الفريق في العالم العربي و الاسلامي الذي يرى الخلاص عن طريق مسايرة الغرب بينما اصبح الفريق الاسلامي يعتبر الحليف للفريق في العالم العربي و الاسلامي الذي يرى الخلاص عن طريق مسايرة الشرق . و في الاعتبارين شيء من المبالغة التي تشوه الحقيقة .

القضايا المصيرية التي ينقسم حولها اللبنانيون بل و العالم العربي باسره ، الى شطرين هي القضايا المتعلقة بصورة المستقبل . السؤال المطروح هو : الى اي حد تجوز المسايرة قبل ان تصبح خيانة حضارية ، ان لم نقل خيانة وطنية و قومية ، و الى اي حد يجوز الصمود و التصلب في وجه مد عارم قبل ان يصبح جمودا يقود الى الاضمحلال و الخراب ؟ لعل خير دور يقوم به لبنان في العالم العربي اليوم هو ان يبقى منبرا حرا يتحاور فيه المسايرون و المتصلبون ، و حلبة رياضية يتصارعون فيها و يتنافسون مع المحافظة على حسن النوايا ، حتى يستمر الانقسام في الرأي حول القضايا المصيرية ، في لبنان و في العالم العربي ، الذي لا خلاص بدونه . لا بد ان يكون بكثرة المستشارين ، و ليس بقتلهم ، و بهجر المشورة ، مهما كانت ، و ليس بالسكوت عنها .